الوظيفة الرمزية للأسطورة في فلسفة نيتشه

The symbolic function of myth in Nietzsche's philosophy

فاطمة صياد fatima sayed أستاذ محاضر –أ- (sayedfatima81@gmail.com)	التخصص الدقيق فلسفة	المختبر/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف/ الجزائر مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بجامعة وهران 2

الإرسال: 12/ 02/ 2021 **القبول:** 31/ 03/ 2021 **النشر:** 14/ 05/ 2021

ملخص:

يحمل الفكر الفلسفي في طيات تاريخه المتعاقب ميزتين اساسيتين هما: إما أنه يتخذ طابعا عقليا يكون بموجبه تفسير وفهم مختلف الظواهر باعتماد العقل، وإما أنه يتجه إلى اللامعقول حيث يفهم الاشياء باعتماد الاساطير والنزعة اللاعقلية المتحررة من قيود العقل، هذه الاخيرة التي تضرب بجذورها في القدم منذ الحضارات القديمة، مرورا بالفلسفة اليونانية خاصة في عهد الشعراء الأوائل هوميروس وهزيود، وصولا إلى المرحلة السقراطية التي أصبح بموجبها فهم الظواهر في إطار العقل، أين أصبحت الأسطورة بدورها تخدم العقل لا الخيال، وهو ما يعرف بالأمثولة.

وقد ظلّ هذا الاتجاه سائدا لفترة طويلة، إلا أن الفترة المعاصرة شهدت رجوعا الى النزعة اللاعقلية من قبل بعض الفلاسفة في فهم العديد من المسائل وهو ما ترتب عنه صراع بين المعقول واللامعقول، والذي حمل رايته بشكل خاص الفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه، إذ شكلت الأسطورة لديه منطلقا أساسيا في فهم وتفسير مختلف الظواهر وحل مشاكل الحياة.

كلمات مفتاحية: الأسطورة – الوظيفة – نيتشه – فكر فلسفي- النزعة اللاعقلية.

Abstract:

Philosophical thought in its successive history has two fundamental advantages: Either it has a mental character by which the various phenomena are interpreted and understood by the adoption of reason, or it turns to irrationality, where things are understood by the adoption of mythology and irrationalism free from the constraints of reason, the latter rooted in age since ancient civilizations, through Greek philosophy, especially in the reign of the early poets Homeros and Haziod, and up to the Socratic stage by which phenomena have become understood within reason.

This trend has been prevalent for a long time, but the contemporary period has seen a return to irrationalism by some philosophers in understanding many issues, which has resulted in a conflict between reasonable and irrational, and which I have seen, in particular, by the German philosopher Friedrich Nietzsche, whose myth has been an essential platform for understanding and interpreting different phenomena and solving life's problems.

Keywords : Myth - Career - Nietzsche - Philosophical Thought - Irrationalism.

مقدمة:

إذا كان الفكر الأسطوري جزء من التفكير الفلسفي يقوم على مجموعة من القصص الخرافية والمعتقدات الشعبية واعتماد اللامعقول في فهم مختلف الظواهر، فعند نيتشه يمكن القول أن الأسطورة ليست عنصر عرضي في فلسفته بل عنصرا جوهريا فيها باعتبارها ذات حضور في كل مراحل فلسفته، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل: لماذا لجأ نيتشه إلى التفكير الأسطوري في بناء فلسفته؟

من أجل الإجابة على هذا السؤال لابد أن نبحث جذور هذا التفكير الفلسفي المتميز الذي يرتبط بعدة عناصر لعل أهمها هي:

السيرة الذاتية والمسيرة الفكرية:

يقول فؤاد زكريا:«شيء واحد اتفق عليه كل من كتب عن نيتشه، وأكده هو ذاته في كتاباته، وأعني بأن فلسفته قد امتزجت بحياته وأصبحت تكون قطعة منها» (زكريا،دت، 17) فهو في رأيه يجعل حياته في هوية مع فكره، ويقضي على كل حد فاصل بينهما، لذا فكل مميزات فكره ولاسيما الصفات الأسطورية له، ترتبط دون شك بحياته، لذلك لابد من إلقاء نظرة ولو سريعة عليها:

هو فيلسوف ألماني ولد في 15 أكتوبر من عام 1844، في بلدة ريكن قرب ليبتسج تيتم باكرا من والده الذي كان قسيسا بروتستانتيا، هذه الحادثة أثرت في حياة نيتشه وجعلته يوظف الأسطورة في تحديد شخصية أبيه التي عبر عنها الدكتور مصطفى غالب قائلا: «ويظهر ان وفاة أبيه وهو في سن الخامسة جعلته يرسم له صورة أسطورية، ويمتدح فيها صفات لاشك أنه لم يلمسها فيه عن كثب» (غالب، 1988، 12) وذلك لأنه بعد ذلك عاش في بيئة نسائية خالصة طبعت شخصيته بميزتين أنثويتين، دفعتاه للبحث عن وسيلة تخشنه وتجعله صلبا وهما الحساسية والرقة (ألفا، 1992، 512) ولم يجد السبيل إلى ذلك إلا في عالم الأسطورة، ويمكن أن نفصل مراحل حياته أكثر كما يلي:

- تلقى في طفولته تكوينا دينيا، باعتبار أن معظم أفراد أسرته كانوا رجال دين، حيث تلقى تربية دينية قاسية جعلته في مرحلة لاحقة يتمرد عليه ويوجه للروح الدينية أعنف الانتقادات حتى سمى نفسه عدو المسيح.
- في عام 1858 التحق بمدرسة بفورتا ثم غادرها إلى جامعة بون، وعندما انتقل أستاذه في اللغويات إلى ريتشل بجامعة ليبتسج تبعه إليها، خلال تلك الفترة تخصص في دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية بعد أن كان ينوي التخصص في اللاهوت.
- في عام 1867 تعرف على فاغنز الذي تأثر بموسيقاه بشكل كبير كما أعجب هو بدوره بفلسفة نيتشه رغم حدوث انفصال بينهما فيما بعد.
- في عام 1869 صار أستاذا مساعدا لفقه اللغة بجامعة بازل.
- في عام 1870 نشبت حرب بين ألمانيا وفرنسا فتطوع في جيش بلاده ولما كان ضعيف البنية عمل ممرضا، وبمخالطته للمرضى والجرحى أصيب بأمراض مختلفة عكرت صفو حياته، فعاد إلى الجامعة بذلك.
- في سنة 1888 أصيب بالجنون، وظل يصارع الأمراض المختلفة وخاصة الصرع وضعف البصر إلى غاية وفاته سنة 1900.

كان هذا بالنسبة لحياته اما فلسفة وأفكاره فيمكن ان نحددها من خلال الإشارة أولا إلى المصدرين الأساسيين اللذان استمدا منهما فلسفته وتفكيره حسب ما عبر عنه سعيد محمد توفيق قائلاً: « لقد رأى نيتشه أن موسيقى فاغنز هي تجسيد لفلسفة شوبنهور أو لإرادة الحياة، وكما أعجب بكل منهما فقد ثار عليهما» (توفيق، 1980، 269) ، وبالتالي فقد تأثر بشوبنهور في كتابه عن التراجيديا التي تصور حياة الإرادة مليئة بالعذاب والألم الذي يرجع في نظره إلى تحلل روح الموسيقى بظهور الفلسفة السقراطية وذلك بعودة الحوار والجدل ممثلا في شخص سقراط، كما أخذ الموسيقى من فاجنر، وهو ما ترتب عنه كتاب نيتشه- ميلاد المأساة من روح الموسيقى- حاول من خلاله تحديد العلاقة بين الدراما الفاغنرنية والمأساة الإغريقية، بالدعوة إلى عصر تسوده الغريزة وانطلاق الحياة والقطيعة مع العقل المجرد، ولكن تطور العلاقة بين فاغنر ونيتشه انتهى إلى الانفصال باعتبار أنه في نظر نيتشه ظل وفيا للروح الأبولونية.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن نيتشه قرأ الفلسفة اليونانية وتأثر بها كما هو الحال مع الشعراء الأقدمين، حيث ألقى درس عن هوميروس والفيلولوجيا القديمة سنة 1969، فالأفكار

الهوميرية واضحة في فلسفة نيتشه التي تعتبر الطبيعة حية مريدة وتستهزئ بالآلهة بالإضافة إلى تأثره وإعجابه بفلسفة هيراقليطس، ومن جهة اخرى نجده يوجه أعنف الانتقادات إلى الفلسفة السقراطية.

من هنا وانطلاقا من هذه المصادر تشكلت فلسفة جديدة مع نيتشه تعتبر ثورة وانقلاب على الفلسفات السابقة باعتبارها بداية لفلسفة الحياة والنزعة العدمية، ترتكز على مبدأين أساسيين هما الفردية واللامعقول، وأصبحت المهمة الكبرى لدارس فلسفة نيتشه كما يقول فؤاد زكريا ليس أن يتساءل المرء: لماذا كان نيتشه فيلسوفا عقليا فرديا متناقضا مع نفسه، وإنما أن يتساءل لماذا كان نيتشه فيلسوفا لا عقليا فرديا متناقضا مع نفسه؟ فإذا توصلنا إلى هذا التعليل فعندئذ تكون المشكلة قد حلت (زكريا، دت، 12). هذه الدعوة إلى اللامعقول والثورة على كل ما هو عقلي هي التي تؤسس لمفهوم الأسطورة عند نيتشه .

مفهوم الأسطورة في فلسفة نيتشه:

إن تحديد حقيقة الأسطورة في فلسفة نيتشه يرتبط بطبيعة فلسفته التي حاول من خلالها معالجة قضايا عصره بالدعوة إلى الفردانية والإقبال على الحياة ونقد العقل المجرد والدين والقيم، فكيف تؤسس هذه المعطيات لمفهوم الأسطورة لديه؟

يمكن الإشارة إلى مدلولين للأسطورة في فلسفة نيتشه هما:

- الأسطورة التي يستعملها لا تخالف معناها المتداول باعتبارها قصة خرافية أبطالها الآلهة والقوى الطبيعية التي تتحكم في الظواهر.
- الأسطورة التي يوظفها هي اتجاه لا عقلي أو دعوة إلى اللامعقول في تفسير الظواهر المختلفة بالحملة على كل ما هو عقلي والدعوة إلى انقلاب عليه في مختلف المسائل المتعلقة بالمعرفة والقيم والوجود.

انطلاقا من المفهومين السابقين فإن للأسطورة عند نيتشه مميزات تجعلها تختلف في طبيعتها واستعمالها لدى الفلاسفة الآخرين، فهي تناقض التصور الأفلاطوني لها الذي ربطها بالعقل وجعلها خادمة له، وحاول من خلالها كذلك تأسيس المعرفة المتعالية، والقيم الحقيقية، بينما نيتشه يربطها باللامعقول، ويهدف من خلالها إلى الإطاحة بالعقل، ومحاولة التأسيس للمعرفة المحايثة المرتبطة بالحياة والثورة على القيم المجردة، وهو ما عبر عنه فؤاد زكريا قائلا: «فأصل المعرفة ليس في المعرفة الخالصة، أو المنطق المجرد، وإنما هي عامل لا عقلي، ولا منطقي

أعني هو نفع الحياة» (زكريا، دت، 68) ، فالبحث عن نفع الحياة هو الهدف الذي تطمح إليه الأسطورة عند نيتشه. كما سعى نيتشه من خلالها إلى الإطاحة بالميتافيزيقا التقليدية حيث انتقد كل أسسها كالعقل ومبادئه كالهوية والسببية والكوجيتو الديكارتي المعروف "أنا أفكر إذن أنا موجود" باعتبار أن مبدأ الهوية مزيف لأنه مجرد وسيلة يصطنعها العقل لإيقاف الصيرورة والتحول المرتبطة بالأشياء، وانتقد كل ما هو أخلاقي ديني، رافضا فكرة الماهيات الخالصة ووجود عالم المثل، وهو بذلك يثور على الميتافيزيقا ويقدم لها تعريفا ساخرا قائلا: هي العلم الذي يبحث في الأخطاء الأساسية كما لو كانت هي الحقائق الأساسية.

كينونة الميتوس النيتشوي ومراحله:

انطلاقًا من مدلول الأسطورة وخصائصها التي تُرادف اللامعقول فإنها ذات حضور في كل مراحل فلسفة نيتشه يمكن أن نحددها بالاعتماد على التحليل الذي يقدمه فؤاد زكريا حول مدى حضور اللامعقول في فلسفة نيتشه (زكريا، دت، 49) كما يلي:

المرحلة الفنية الرومنتيكية التي تمتد من 1869 إلى 1876م وهي المرحلة التي كان واقعا فيها تحت تأثير شوبنهاور وفاجنر، وانتهت بتخلصه منهما، وكان فيها حضور اللامعقول والأسطورة من خلال قول نيتشه بالأبولونية والدينوسية (تعرف كذلك بالديوننوسوسية نسبة إلى ديونوسوس إله الخمر والمرح عند الإغريق) كمنطلقين لتفسير الظواهر، فهناك ميل واضح لدى نيتشه إلى النزعة اللاعقلية، واتجاه مباشر إلى الاندماج بالطبيعة التلقائية في صورتها الأولى، قبل أن يشوبها العقل الخالص، فهو اتجاه إلى الإقبال نحو الحياة.

- المرحلة الوضعية النقدية التي تمتد من 1876 إلى 1882 وفيها تأثر نيتشه بالمنهج العلمي، وهنا وظف نيتشه أسطورة العود الأدبي، كما حرص في هذه المرحلة على توجيه النقد إلى مقومات الحياة الإنسانية في العصر الحديث، وفيها كذلك ظل نيتشه وفيا للامعقول من خلال حملته على الميتافيزيقا ونقده للأخلاق الشائعة والدعوة إلى قلب القيم، وردها إلى أصولها الحيوية النفعية، وهنا يرى أن الحياة أصل لكل معرفة ونقد العقل المتعالي المجرد، وهنا رغم وجود الأسلوب العقلي الهادئ الذي تميزت به كتابات نيتشه في هذه الفترة واتخاذه المنهج العلمي مثلا أعلى من خلالها، الا ان ذلك لم يمنعه من أن يواصل اتجاهه الناقد للعقل، ومن أن يكون أيضا من أنصار اللامعقول.

- المرحلة الصوفية الخالصة التي تبدأ من كتاب زرادتشت، من سنة 1883م وتستمر حتى سنة 1888م، وفيها تميز تفكير نيتشه بالاستقلال التام، وبدأ يشير في طريقه الخاص، واتخذ أسلوبه عن طريق التدفق الصوفي لا التحليل النقدي وهي مرحلة كذلك ذهب إليها نيتشه وهو لا زال يحمل على المذاهب الميتافيزيقية الخالصة وعلى المؤمنين بالعقل المجرد، من خلال قوله بأسطورة زرادتشت التي تمثل تصوف متعلق بالأرض يمجد الحياة ويتغنى بالطبيعة التلقائية وهو ما ندركه كذلك في الإنسان الأعلى الذي تسوده حياة الغرائز والإرادة.

تأسيسا على ذلك ندرك أنه لا يمكن وصف تفكير نيتشه بالمتناقض بل هناك مبدأ واحد يقوم عليه وهو نقد المعقولية التجريدية أو الميتافيزيقا، وتمجيد الحياة وإعلائها والتعلق بالطبيعة الأرضية، وهو ما ندركه بوضوح في مختلف الأساطير التي وظفها نيتشه في فلسفته.

تجسيد الاسطورة في فلسفة نيتشه:

إن نزعة نيتشه إلى اللامعقول جعلته يوظف الأسطورة بمفهومها الحقيقي في مختلف آرائه، وهو ذاته يؤكد أهميتها قائلا: إن الأمة تبدع في طور شبابها الأسطورة والشعر وتنتج في مرحلة انحلالها الفلسفة والمنطق، فقد أنجبت اليونان في شبابها هوميروس وأشيل وأعطتنا في دور انحلالها يوربيدو المنطقي المخروط دراميا، والعقلاني المدمر للأسطورة والرمز والعاطفي الهادم للتشاؤم المأساوي في عصر الرجولة، وصديق سقراط الذي استبدل الجوقة الديونوسية بحشد أبولوني من الجدليين الخطباء (غالب، 1988، 18) ، وبالتالي فنيتشه سيعود إلى الأساطير الشرقية واليونانية ويؤسس أساطير جديدة انطلاقا من نقد العقل والدين والأخلاق والميتافيزيقا، وأهم هذه الأساطير هي:

أسطورة ديونيس وأبولو (يسمى كذلك أبولون وهو إله الحكمة عند الإغريق) وهي التي وظفها نيتشه في كتابه "مولد المأساة من روح الموسيقى" وقد عبر عنها مصطفى غالب قائلا على لسان نيتشه«ويحدثنا من خلالها عن إلهين عبداهما الفن الإغريقي قديما وهما ديونيس أو باخوس إله الخمر والعربدة والمرح، إله الحياة المتصاعدة، إله الغبطة في الفعل، إله الانفعال الانذهالي والوحي، إله الغريزة والمغامرة والمعاناة الجسور، إله الغناء والموسيقى والرقص والدراما، ويتكلم من خلالها كذلك عن أبولو إله السلام والفراغ والطمأنينة والهجوع والانفعال الجمالي والتأمل الفكري، إله النظام المنطقي والهدوء الفلسفي، إله التصوير الزيتي والنحت والشعر

الملحمي. وكان الفن اليوناني يتجسد في اتحاد المثلين الأعليين- اتحاد القوة الرجولية القلقة المتبرمة، قوة ديونيس، والجمال الأنثوي الهادئ، جمال أبولو» (غالب، 1988، 5).

انطلاقا من هذا النص ندرك ان نيتشه يعود إلى اليونان في هذه الأسطورة ليقسمهم إلى قسمين الشعراء رمز التطور يمثلون الروح الديونيسية، والفلاسفة انطلاقا من سقراط رمز للانحطاط يمثلون الروح الأبولونية، وقد عبر عن ذلك قائلا:« إن ما يعتبر علامة انحطاط لدى سقراط، ليس الاضطراب الفوضوي للغرائز الذي كان قد اعترف به فحسب، بل كذلك تضخم ملكة الجدل وخبث الكسيح الذي يميزه» (نيتشه، 1960، 20)، أفول الأصنام وذلك لأنه يمثل سيادة الروح الأبولونية والحكمة ورفض الحياة، هذه الثنائية في التصور يفسر بها نيتشه التاريخ والحضارة والفن، فالعنصر الديونيسي رمز للحماسة والاندفاع واللاعقلانية هو باختصار رمز للإرادة، وهذا العنصر يظهر في الموسيقى والتراجيديا، والعنصر الأبولوني يمثل رمز لمبدأ التفرد والوضوح، ويتجسد في الفنون التشكيلية، كما يعتبر جوهر التراجيديا أيضا هو الألم، ولذلك كانت الاحتفالات الديونيسية القديمة تعرض في المقام الأول ألام الإله وهي تحتاج إلى مبدأ شكلي أبولوني يخلع على الألم الصور الواضحة الجميلة والتي تكون أحداثها الحوار والشخصيات وهو ما تجسد في فلسفة سقراط وأفلاطون، الإغريق المزيفين، المضادين للإغريق (نيتشه، 1960، 18) في مقابل ذلك يرى أن فلسفة شوبنهاور ((1788-1860م)، فيلسوف ألماني تأثر بكانط والفلسفة الهندية) تجسد الروح الديونيسية التي أسس لها من خلال موسيقى فاجنر كذلك، لكنه ثار على هذا الأخير فيما بعد لأنه وضع القيم الموسيقية في مكانة ثانوية بالمقارنة مع الأفكار العقلية، حيث اعتبر هذا الموقف وفاء للروح الأبولونية، هذه النظرة الثنائية ندرك من خلالها أن الحقيقة عند نيتشه مرتبطة بعالم التغير والصيرورة الذي نعيش فيه وبصورة أوضح متعلقة بالحياة وهي تحدد الشروط اللازمة لنموها، وهي ليست جوهرا مفارقا يوجد في عالم آخر مجرد مستقل عنها، وهو ما جعله ينتقد كل الفلسفات السابقة له التي تقوم على هذه الفكرة ويمتدح فلسفة هراقليطس على خلافها في قوله: «استثني اسم هيراقليطس((حوالي 540-840 ق م)، فيلسوف يوناني من الطبيعيين.) مع كامل الاحترام له» (نيتشه، 1960، 26) ، وذلك لأنه لم يقل بفكرة الثبات التي تبلورت مع الفلسفات الأخرى، فالحقيقة هي المطابقة للروح الديونيسية، وهذه القسمة الثنائية تنطبق كذلك على الأخلاق التي يمثل تاريخها صراع بين الروح الأبولونية التي تجسدت مع أخلاق العبيد وهم اليهود والمسيح، والروح الديونيسية التي تجسدت مع أخلاق السادة وهم الإغريق

الأوائل والرومان وقد حققت انتصارا في عصر النهضة بسقوط المسيحية، بينما أكبر انتصار حققته أخلاق العبيد كان مع الثورة الفرنسية وسقوط النبلاء على يد الطبقات الشعبية.

وبالتالي فهذا التصور الأسطوري القائم على الثنائية الأبولونية والديونيسية يحمل فلسفة جديدة تحدث قطيعة مع الفلسفات السابقة التي اعتمدت على العقل والتجريد وتنكرت للحياة والعالم المحسوس، باعتبارها تدعوا إلى العودة إلى الحياة ومعالجة مختلف المسائل المعرفية والأخلاقية والفنية والوجودية انطلاقا من حياة الإنسان ذاتها، فهذه النظرة لا تعكس تراجع إلى الوراء كما يظهر لنا، بل هي قفزة نوعية في تاريخ الفلسفة فرضتها معطيات العصر الجديدة بعد عصر النهضة والتقدم العلمي، وهو ما يتجلى بوضوح في الأسطورة اللاحقة.

أسطورة العود الأبدي:

من أجل فهم هذه الاسطورة لابد أن نوضح بعض التفاصيل المتعلقة بها كما يلي:

- **جذورها:** عبر عنها الدكتور فؤاد زكريا قائلا:«لفكرة العود الأبدي تاريخ طويل في الفلسفة بل قبل الفلسفة، فأصولها ترجع إلى عهد الأديان القديمة التي قامت على أساس أسطوري لا يمت إلى العلم أو المنطق العقلي بصلة» (زكريا، دت، 138).

كما ظهرت لها بوادر في فلسفة انكسمندر (انكسمندر أو أنكسمندريس (610-457 ق م) فيلسوف طبيعي يوناني جاء بفكرة اللامحدود كأصل للأشياء.)حين قال بعدد لا متناه من العوالم، وإن كنا لا ندري إن كانت هذه العوالم تتعاقب أو توجد معا، والذي يعزز أنها تتعاقب هو اعتقاد انكسمندر بالفناء الكوني، مما يبين وجود تعاقب بين أحوال مختلفة للعالم، الامر الذي يقترب مما تقول به نظرية العود الأبدي وإن لم نتأكد على أنها تتكرر بنفس الحوادث.

وتظهر الفكرة أكثر وضوحا عند هراقليطس، لاعتقاده بأن النار هي عنصر الكون الأساسي تلتهم العالم بين فترة وأخرى، فيعود العالم بعد ذلك عودا مماثلا لصورته السابقة من خلال دورات معينة.

كما توجد الفكرة كذلك عند أنباذوقليس((490-430 ق م) فيلسوف يوناني طبيعي قال بفكرة العناصر الأربعة.في قوله بوجود تتابع أبدي لعوالم متتالية تتكون ثم تفسد.

هذه الآراء السابقة تدقق الفكرة التي تظهر بحذافيرها لدى الفيثاغورثيين(الفيثاغورثيين هم فرقة فلسفية اهتمت بالرياضيات والفلك والموسيقى تنسب إلى فيثاغورس (572- 479 ق م).

باعتبارهم رأوا أن الزمان يعود كما سار من قبل، فتتكرر كل حوادث العالم كما تتكرر فصول السنة بعد أن تتم دورتها.

هذه الأصول السابقة لفكرة العود الأبدي تعكس وجود تأثر لدى نيتشه من اليونان في القول بها، ولكن القدرة عند نيتشه ذات مفهوم آخر يحمل مدلول فلسفي وعلمي عميق يقوم على قواعد ثابتة، فكيف يمكن تحديد ذلك؟

- **مفهومها:** العود الأبدي هو وجود تكرار أبدي لدورات الكون، كل منها مماثلة من جهة، وأبدية الزمن من جهة أخرى الامر الذي يتطلب ممارسة القوة بلا انقطاع، وهو ما يترتب عنه إعادة تكرار الحالات السابقة في الفترات اللاحقة بنفس أشكالها.

انطلاقا من هذا المفهوم فإنها تقوم على قاعدتين اثنتين (زاهر، 1979، 139) هما تناهي القوى وأبدية الزمن، فإذا ما كان في المادة من قوة التشكل متناهيا ومحدودا على حين أن الزمان أبدي يبتلع في جوفه كل ما هو محدود، فإن معنى ذلك أن يستنفذ كل شخص عبر القرون ما يتاح له من الصور المتغيرة، ثم يعود إلى الصورة القديمة ليعيش نفس حياته السابقة بكل ما فيها من دقائق وتفاصيل، فمن الضروري القول بتكرار هذا العود بما يتناسب مع أبدية الزمن، ومن الضروري أن يعم هذا التكرار الأشياء والأشخاص جميعا، فكل شيء يعود لأحواله الأولى.

الدلالات الفلسفية والعلمية لفكرة العود الأبدي: لهذه الفكرة أبعاد فلسفة وعلمية نحددها كما يلي:

- إن تصور الكون على انه قوة محدودة وهو ما يؤكد الروح العلمية التي تنطلق من محدودية القوة الكونية المتحكمة في الظواهر بعيدا عن الروح الدينية التي تؤمن بالإطلاقية والغيبيات.
- هذه الفكرة تفسر بوضوح المذهب الآلي باعتبارها نتيجة له، فالعالم في رأي هذا المذهب آلة عمياء، من شأنها أن تفسر بنفس الحالات مرات لا متناهية.
- هذه النظرية تؤكد سيادة القانون العلمي ولا تجعله عرضة للتحول والتغير.
- تعتبر خير وسيلة للتوفيق بين فكرة الثبات كما وجدت عند الإيليين وفكرة التغير كما وجدت عند هيراقليطس، فقد ظلت هذه الإشكالية مطروحة عبر الفلسفة اليونانية، والجديد الذي أضافه نيتشه لها هو انه أكسب التحول صفة الوجود، فلم يعد يقول بتحول دائم بل أصبح يرجع التغير إلى ذاته، ويمكن القول أنه تغير ثابت.

– الفكرة تعكس خلود الحياة وأبدية العالم الذي نعيش فيه، وهو ما يترتب عنه دعوة إلى التعلق بالعالم الأرضي وتوجيه الأفكار نحو الحياة وعدم خشية الموت باعتبار أن عقب كل موت حياة.

– الفكرة تؤكد حب المصير ففيها قبول للحياة وليس استسلام، أي إقبال على الحياة بكل ما تحمله من آلام ومتاعب، فهي تبعث الأمل في النفوس والتطلع إلى الحياة بدل الاستسلام والعجز.

– الفكرة ترتبط بقاعدة أخلاقية هي "عش حيث ترغب في حياة ثانية" التي تعتبر استبدال لقاعدة كانط افعل بحيث تصبح قاعدة سلوكك لتكون قانونا يسري على الجميع، فنيتشه يدعوا إلى قاعدة أخرى وهي سلوك أفضل طريق نحو الحياة لأنه سيظل يسلك ذلك السلوك مرات لا متناهية.

من خلال تحليل فكرة العود الأبدي ندرك أن نيتشه قد وظف التفكير الأسطوري حتى عندما كان وضعيا يميل إلى العلم، وكل هذا من أجل هدف واحد هو الإيمان بالحياة والكفاح في سبيلها.

أسطورة زرادشت:

تتعلق هذه الاسطورة بالمرحلة الصوفية من فلسفة نيتشه التي يتواصل فيها تحقيق حلمه المتعلق بربط الحقيقة بالحياة والأرض، ومن أجل هذا الهدف استعار في هذه القصة اسم زرادشت الفارسي الذي ينسب إليه القول بالخير والشر كقوتين تتنازعان حياة الإنسان (نيتشه، دت، 30) ، ولكن في شكل جديد ربطه بدستور أو تعاليم يطمح إلى تحقيقها في الواقع جسدها في كتابه المعروف "هكذا تكلم زرادشت".

فزرادشت شخصية أسطورية، عندما بلغ 30 سنة من عمره هجر وطنه وبحيرته وسار إلى الجبل واعتزل به لمدة 10 سنوات ثم نزل إلى الغابة ليلتقي بشيخ عجوز ينظم بعض الترانيم والأناشيد ليتعبد بها، تعجب زرادشت لحاله عندما انفرد وتساءل: ألم يسمع هذا الشيخ بأن الإله قد مات، ثم انتقل إلى المدينة ليعرض فكرة الإنسان المتفوق بالإضافة إلى فكرة موت الإله.

يمكن فهم هذه الأسطورة من خلال الشخصيات المختلفة فيها والتي تمثل رموز تحمل معاني دقيقة، بدءا من زرادشت الذي يرمز إلى انقلاب في التاريخ وتمرد على القيم المتعارف عليها، فهو حسب نيتشه أول مفكر لا أخلاقي، وأول من أبصر في معركة الخير والشر العجلة الحقيقية في مسيرة الأشياء، ويجيب نيتشه على أسباب استعمال زرادشت بأنه أكثر صراحة من أي مفكر آخر، وأن تعاليمه وحدها تمتاز بالصراحة وتبين أن انتصار الأخلاق على ذاتها حب للحقيقة.

لتوضيح مدلولات الاسطورة سنشرح فكرتين أساسيتين واردتين فيها، وهما:

أولا: موت الإله والإنسان المتفوق: فكرة موت الإله هي الموقع الذي يؤسس تعاليم زرادشت عن طريق مثال الشمس فسعادة هذه الأخيرة أن تتزود الأشياء التي تنيرها بفائض نورها ونيتشه هنا كذلك يشبه نفسه بالشمس ذاتها، فهو يبشر بتعاليم جديدة على لسان زرادشت، بعدما كان الإله يفرض تعاليمه، ولكن بموته تغيرت، فموت الإله هو نهاية المثالية التجريدية التي تتنكر للعالم المحسوس وتجعل الحقيقة متعالية، وبناءا على ذلك يرى نيتشه أن هناك الإنسان الذي يفهم هذه التعاليم وهو الذي يخلق نموذج يتفوق على ذاته وهو الإنسان المتفوق، الذي يمثل معنى الحياة الأرضية وذلك لأنه يحسن استخدامها فلا يرى في العالم الآخر إلا مجرد وهم، لذلك يجب هدم كل ما هو ميتافيزيقي في المعرفة والأخلاق والتعلق بالحياة للوصول إلى الحقيقة.

ثانيا: التحول الثلاثي للعقل: وهو نموذج للأسطورة الحقيقية باعتبار نيتشه هنا يبني قصة جديدة تضم مجموعة من الحيوانات بالإضافة إلى الطفل، وهي ما عبر عنه نيتشه قائلاً: «سأشرح لكم تحول العقل في مراحله الثلاث، فأنبؤكم كيف استحال العقل جملا، وكيف استحال الجمل أسدا، وكيف استحال الأسد أخيرا فصار ولداً» (نيتشه، دت، 43) هنا يبين نيتشه انبثاق الإنسان المتجاوز عن طريق التحول التالي:

الجمل هو الإنسان الذي يقوم بأعسر الخدمات، ويجعل من نفسه ممرا لسلطة أقوى منه، فهو يتحمل أثقل الأحمال كالجمل الذي يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الحمل عن ظهره، هكذا يندفع هو أيضا نحو صحرائه وهناك في الصحراء القاحلة ينقلب إلى أسد.

الأسد هو الإنسان المتحرر، المنطلق، الباسط سيادته في الصحراء يواجه التنين الذي يمثل كلمة "يجب عليك"، ويتغلب عليه حيث ينطق دائما بكلمة "أريد"، فالتنين يرمز إلى كل الشرائع التي كانت سائدة، بينما الأسد يسعى إلى تغييرها إلى سنن جديدة ولكنه يعجز لذلك سيتحول إلى طفل لمواجهة الواجب.

الطفل سيقوم بما عجز الأسد عنه، لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها، فهو حركة البداية، لأن العقل يطلب الآن أن يجد دنياه، وبالتالي فالطفل يقابل شخصية زرادشت، لأنه يخلق قيم جديدة تمثل معنى الأرض والحياة.

هذه الأحوال الثلاث تتأسس منها تعاليم زرادشت في الوصول إلى الحقيقة، يتبين من خلالها أن الإنسان يكون محملا بالأوهام التي أتت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية جسدها في الجمل، ثم يسعى في المرحلة الثانية إلى التخلص منها بالمواجهة دون خوف او خطر جسدها الأسد

الذي يواجه التنين الذي يأمر بالخضوع لها، ليصل في الأخير إلى الطفل وهو إبداع قيم جديدة من صنع الذات الفردية كالقوة والرجولة وحب الحياة أي صفات الإنسان المتفوق، وهو ما يؤسس لمفهوم إرادة القوة عند نيتشه الذي يمثل مبدأ تحقق الحياة والحصول عليها.

خاتمة:

ندرك من خلال هذه الدراسة التحليلية المختصرة للأسطورة في فلسفة نيتشه انها ذات أهمية كبرى، إذ تمكننا من فهم فلسفته في كبرى قضاياها كالميتافيزيقا والمعرفة والأخلاق، كما تمكننا من فهم الفلسفات السابقة له وخاصة الفلسفة اليونانية، بالإضافة إلى ذلك يتبين لنا مكانة الأسطورة في الفكر المعاصر باعتبارها ليست خرافات وأوهام انتهت منذ الأزمنة القديمة كما هو معتقد، بل هي أفكار ذات طابع فلسفي وعلمي وديني واخلاقي، يعتبر حضورها ضروريا في الفلسفة المعاصرة ومن الضروري إعطائها مكانتها الحقيقية في مختلف الدراسات وخاصة فلسفة نيتشه التي لا تفهم إلا بفهم بنية الأساطير التي يستعملها ومدلولاتها، فالبحث فيها يحمل نتائج مختلفة منها مسألة المعرفة الحقيقية التي تتعلق بالحياة الأرضية، ويتبين من خلالها قيمة الميتافزيقا باعتبارها مجرد أوهام وأخطاء اعتقد العقل أنها مجرد حقائق، وبالتالي بين تاريخ الفلسفة الداعية إلى الحقيقة المجردة المتعالية المتنكرة للواقع والحياة اللذان وجب أن تتأسس عليهما، كما بين من خلالها بعض مشاكل إنسان القرن العشرين كالرغبة في الحياة والفردانية، كما أنها تحمل قيم دينية لا يمكن إنكارها كاظهار زيف المسيحية واليهودية التي يؤمن بها أصحاب هذه الديانات وقيامها على أفكار خاطئة لا يمكن تطبيقها في حياة الإنسان ولاسيما في الفترة المعاصرة. وبالتالي ففلسفة نيتشه بما فيها الأسطورة حلقة حاسمة في تاريخ الفكر الفلسفي تحمل في كل جوانبها مشكلات الإنسان المعاصر مما يتوجب الاهتمام بها ودراستها بعمق وشمولية مستقبلا.

قائمة المراجع:

1- فرديريك نيتشه، (دت)،هكذا تكلم زرادشت، ترجمة جديدة متكاملة، بيروت: منشورات المكتب العالمي.

2- فريدريك نيتشه، (1960)، أفول الأصنام، ترجمة: حسان بورقية ومحمد الناجي،(ط1)، إفريقيا الشرق.

3- فؤاد زكريا، (دت)،(نيتشه، ط2)، مصر: دار المعارف.

4- مصطفى غالب، (1988)، نيتشه -في سبيل موسوعة فلسفية- بيروت: منشورات دار مكتبة الهلال،.

5- سعيد محمد توفيق، (1980)، ميتافزيقا الفن عند شوبنهاور،(ط1)، دار التنوير للطباعة والنشر.

6- رفقي زاهر، (1979)، أعلام الفلسفة الحديثة- رؤية نقدية-،(ط1)، دار المطبوعات الدولية.

7- الأستاذ دوني إيلي ألفا، (1992)، مراجعة: جورج نخل، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، (ط1)، بيروت، لبنان: دار الكتب العالمية.

8- عبد الرحمن بدوي،(دت)، موسوعة الفلسفة،(ط2)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

9- محمود يعقوبي، (1998)، معجم الفلسفة، الميزان،